ناحية المجون

في الأدب العربي

لسليم خياطه

لكل أمة عظيمة ناحية ماجنة حتى الخلاعة في أدبها . لكن ربما لم تكن هناك أمة بلغت لغتها في أدبها المجوني ما بلغته لغتنا في آدابنا العربية والاسلامية . ويبدو ان شدة طابع هذه الناحية في هذه الآداب تأثرت بعاملين ، الاول : إساءة الاستعمال الطارئة في الحياة الاجتماعية للفكرة الواقعية البديعة : « لا عيب في الدين » . والثاني : ما في اوصاف الملذات الحاصلة للصالح في الجنة من إغراء غير الصالح بتحليلها ، وبالمبالغة فيها بحسب طبعه علاوة على ذلك ، ثم بعدم الشعور ، وفقاً لميله بإدبار يأتيه من تعقبها على الارض . فاذا كانت جائزة المؤمن لذات ناعمة في آخرته ، فلماذا لا تكون له ، وهو دائماً مؤمن — ومن غير زنديق لا يعتبر نفسه مؤمناً — هذه الجائزة في الحاضرة والأمر أضمن ، كما فيه كسب الجنتين ، وإحداهما نقد على منطق الحياتي الضحوك ؟ ....

ثم كانت هناك امور كثيرة ننظر إليها اليوم كأشياء أصبحت ، على العموم ، غريبة وبعيدة عن حياتنا الاجتماعية ، ولكنها كانت يومذاك طبيعية مقبولة ومرتبة في النظر والتعليل وقواعد الحياة المدنية وسهلاتها : من تعدد زوجات ، ورق عائلي رفيق بالقياس الى الرق الروماني ، وانعدام الحالة والفكرة (١) الاجتماعية الحديثة وهذه امور كانت تربة مؤاتية نوعاً ما للافراط النوعي في هذه الناحية من آدابنا العربية . واما المدنية الفارسية والرومية (البيزنطية) فليست هي العامل الفعلي او الاجتماعي او الحقوقي فيما ظهر من هذا في الحياة العربية وآدابها . بل انها قدمت المادة اللازمة من مال وحي ومعرفة احتكاك واختلاط وتشبه بالحضارة السابقة النامية ، فالاستعانة بالتفنن في الترف والتلذذ ، حياة وادباً ، اكتساب منها

---

(١) بخصوص الفكرة نجد بذوراً كثيرة منها بل وأزهاراً نامية نمواً يستوقف النظر في المدرسة العقلية الاعتزالية ، المبنية على اعتبار المسؤولية الفردية استناداً الى النظر القدري في الوجود وهو عكس روح الجبرية الدينية في الاسلام . ونجدها كذلك على الخصوص ، في خصم المعتزلة أيضاً ابن حزم ، اكبر نظريي الاسلام عقلية عملية كما يبدو ، ومن ثم في مفكرين وأدباء وفلاسفة كثيرين غير هؤلاء

خرج الاسلام من بداوة الجاهلية . ولنا في الجاهلية أدلة مثالية على بذور هذا الميل الى التاجن المتطرف . ففي امرىء القيس وحده مثل جد موفق . وفي كثير من حياة الجاهلية وعاداتها وتعبيراتها ما يشير الى وجود نظر عادي عندهم إلى ما قد نعتبر بعضه اليوم مجوناً خليعاً وأموراً لا تخرج عن حدود شهوانية غير خفيفة . وهذا النظر إما هو عاديٌّ منهم ، وإما هو ، على الاكثر مصطبغ بشعور الفكاهة — «فكاهة» رابليه — أو بعاطفة شعر تتراوح ما بين حامية وبين إغريقية الروعة فيما تجلب به أكثر الملهيات الشعرية من جمالٍ رخاميٍّ ، مرمريٍّ ، مبتردٍ ، نبيل . بل كما أننا كثيراً ما ننظر اليوم الى شبانٍ خفافٍ مستهترين كأفذاذٍ وأبطالٍ «دون جوانيين» يحسدون على حظوظهم الطيبة ومواهبهم المجونية ، كذلك كانت الجاهلية تنظر الى مشهوري سكّيريها وتبّاع ملذاتها . ففي أخبار ملوكها في الحيرة واليمن وبصرى ما يشبه ، مع حفظ النسبة ، ولكن بدون نظر استنكار لملوكهم يومذاك ، طرفاً من أخبار يزيد والوليد وسواهما من خلفاء بني أمية وبني العباس وكبار الاشراف والولاة وملوك الطوائف وفي قبائلها أمثال المهلهل والأعشى كوالبة في الاسلام والأخطل ومطيع وأكثر من قال شعراً من بعد في غير الحكمة والمواعظ والمراثي والمدائح والوصف . ففي الجاهلية ، طرفة ، أليس هو القائل:

إذا القوم قالوا : «من فتى؟» خلت أنني … عُنيتُ ، فلم أكسلْ ولم أتبلدِ

ولستُ بحلّالِ التلاعِ مخافةً ، … ولكن متى يسترفد القومُ أرفدِ

وإن تبغني في حلقةِ القوم تلقني … وإن تلتمسني في الحوانيت تصطدِ !

متى تأتني أُصبحك كأساً رويّةً … وإن كنت عنها ذا غنىً ، فاغنَ وازددِ !

نداماي بيضٌ كالنجوم ! وقينةٌ … تروحُ علينا بين بُردٍ ومجسدِ

إذا نحنُ قلنا : «اسمعينا !» انبرت لنا … على رسلها ، مطروفةً ، لم تُشدّدِ

رحيبٌ قطابُ الجيبِ منها ، رفيقةٌ … بجسّ الندامى ، بضّةُ المتجرّدِ

وما زال تشرابي الخمورَ ، ولذّتي ، … وبيعي وإنفاقي ، طريفي ومُتلدي !

الى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها … وأُفردت إفرادَ البعيرِ المعبّدِ ! . . .

رأيتُ بني غبراء (1) لا ينكرونني ! … ولا أهل هذاك الطرافِ الممددِ !... (2)

ألا أيهذا اللائمي احضرَ الوغى ، … وأن أشهدَ اللذات ، هل أنت مخلدي ؟!

فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيّتي … فدعني أُبادرها بما ملكت يدي !

(1) اللصوص (2) الاغنياء أصحاب خيام الجلد لا الشعر

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى وجدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدي!
فمنهنَّ سبقي العاذلات بشربةٍ: كُميتٍ، متى ما تُعلَ بالماء تزبدِ
وتقصير يوم الدجن (١) والدجن معجب ببهكنةٍ تحت الخباء المُعمَّدِ!
وكرّي إذا نادى المضاف، محنَّباً، كسيد الغضى ذي السورة المتورِّدِ:
كريمٌ (٢) يُروِّي نفسه في حياته! ستعلم إن متنا غداً، أيُّنا الصدي؟!
أرى الموت اعداد النفوس، ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليوم من غدِ!
أرى العُمْر كنزاً ناقصاً كل ليلة (٣) وما تنقص الايام والدهر ينفدِ!

ولعلَّ هذا المتجه القوي في الأدب العربي منذ الجاهلية راجعٌ منذ ذلك الوقت ايضاً إلى ما قد يوافق تسميته بـ « مثالية العكس » . فكما وجد أهل الشمال من الكندناويين، وهم في منازل صقيعهم، صورة جنتهم ومرتع آلهتهم وخالدي ابطالهم في ربوع دافئة، جنوبية النسيم، لا تغيب عنها الشمس، وكما تبلورت عند عرب الجزيرة الملتهبة في جنان ذات قرٍّ وأنهار، ثم عبّرت عنها اللغة العربية والعقلية، منذ الجاهلية، في رسم السعادة والراحة غالباً بألفاظ واستعارات وتشابيه وكنايات البرود والرطوبة: كذلك رأى هؤلاء ايضاً، وهم في شظف عيش أرض جافة فقيرة، وبقدر قوة الدافع العكسيّ في ذلك (٤)، سعادة عكس الحال، في صور مرفّهة ترفيه انحلال جسمانيّ للعيش، على ما كانوا يتذوقون مناظرها المتلألئة واخبارها ومتخيلاتها فيما أحاط بها من مدنية فارسية — بيزنطية، انحلالية، كانت صاحبة الصولة ومثالاً أعلى للحياة المدنية والقوة الارضية للانسان في زمنهم ومدار اقليمهم

(١) الغيم، والمعنى كئيب راغم الدماجة (٢) يقصد نفسه بالذات بديع (٣) اخترت جميع هذه الابيات الطرفة لانها تمثل حالة عقلية تامة تنقص صورتها بانقاص شيء منها، ولانها تبين بكل وضوح وروعة ممكنة نظرة متناسقة مكتملة بمعانيها جميعاً على ان الجمال الشعري في جوه الاصلي فيها أكثر منه معاداً ومكرراً لا يكثر مع ذلك، ولا يزيد الا تقطعاً وتجدداً وجمالاً ينبع من جمال

(٤) يلاحظ نفس الامر في « الف ليلة وليلة » بل وفي الاقاصيص الشعبية عند مختلف الامم عموماً وانما هو في « الف ليلة وليلة » أبرز وأقرب الى موضوعنا . فالسعادة المصورة دائماً بحالة هائلة من الترفه والتنعم، الذي تكاد الرسوم الباقية عن بلاطات الخلافة لا تحوي مثل اوصافه حتى لدور التجار فيها، نابعة مثل هذه القصص نفسها من اقعر الاوساط الشعبية، من « بافون » (Bas Fonds) القرون الوسطى المصرية، وفي أصولها السابقة من اوساط هندية او فارسية سابقة شبيهة المرتبة ولا شك . وعلماً بمثل هذه الحالة النفسية العامة قلت في تعليق في تحقيق « الاركان » على عبارة « خرقة التصوف » انها الخرقة للتصوف الفني، وهي، يقال لها، السجادة عند « الدرويش » وذلك من قبيل التمثيل فقط لانه لا يصح هذا الاطلاق دوماً في الواقع اذ كثيراً مثلاً يتكرر الدرويش خرقته ولا يتكرر الصوفي الثري سجادته

على انهُ لا مجال قط لانكار أن مجونَ الآداب العربية في الجاهلية وصدر الاسلام أصح طبيعةً ومظهراً جداً منه فيما بعد. فالشهوانية المرتضية السماء، هي شهوانيــة انترف المدني المفرط، والاسراف الآسيوي القديم، لم تكن قد لتحت آدابنـا بعد بعصلها الانحلالي الشديد. بل على أقصى خلاعة الجاهلية طابعٌ أصيلٌ من حلو السذاجة الفطرية هي دائماً عذبة، فكهة، لطيفة الخشونة البدوية، وجيلة في غاية الجمال، في أروع صورة كلاسيكية خالدة منهُ، في قرابةٍ من الجمال الخالد لامةٍ بدوية أخرى كانت تنيأ لوثبتها: جمال الاوذيسة والالياذة. بل في بعض الشعر الجاهلي، في امرىء القيس مثلاً ملمسٌ من «فينيس ميلو»، عري كالنده وغلمةٌ متكبرة. جمالٌ قويٌّ، صلبٌ، جزلٌ. جمالٌ ليس المجون فيه تهتكاً متدنياً. ليس مبتذلاً. ليس مقلداً ولا يقلد

***

آدابنا في الجاهلية وصدر الاسلام لا تقابل من أي وجهٍ مجوني بنازع الشهوات اللاحقة فيما بعد. المجون وما يلحقهُ عند العربي الأول نظيف العقلية والشكل معاً، رجوليٌّ، شعبيٌّ، بدويٌّ، طلقُ المحيا، ساذج وفلسفي الطبع مع ذلك، عليهِ علامة حرية البادية، نورٌ ذهبيٌّ من شمسها، طراوةٌ عميقة الغور من ليلها، ودُعابةٌ لا مباليةٌ لهوبٌ من هواء نجدها، ومن نسيم الآسية في قراها ومنازل واحاتها الصغيرة تأخذ بترصيها أضواء القرى؛ ولا يشبهُ مجون هذه الآداب وحياتها من وجهٍ بمجون آداب الخلاعة الرومانية او الفرنسية وحياتهما كذلك. بل يشبهُ المجونُ اللاحقُ منذ زمن العباسيين بها وتشبهُ به — خصوصاً الرومانية. ثم انهُ أعلى وأجزل فناً في تعبيره الشعري عن تعبير جميع هذه الآداب الشعري او النثري. وهذه أبيات طرفة التي تقدمها مثلٌ، لا يعوزها لترى ذلك بكل وضوح وإضاءتها الاّ قليل من الشرح وبعض المقابلات

انما لا يغيب عن بالنا أننا مع ذلك أصحاب السبق في أخلع المجون الأدبي. وفي مجون الحياة كذلك أيضاً، والأدب كما أعيد وكرّر مرآتها، حتى أنهُ ربما حوت المدنية العربية الاسلامية في الفعل بعض ما لم تحوِ أبلغ مفترقات خلاعة انكليزية أو شيكاغوية او راسبوتينية الشكل، بأقوى حالات هذه في شذوذها وتهتكها او في أصفق منافقات تسترها. أما في الأدب، فلم تبلغ آداب روما القياصرة، ولا آداب الاستهتار الفرنسي، ولا أظن غيرها أيضاً، حداً من حدود أبي نواس او ابن الحجاج، ولا بعضاً من الدسامة الثقيلة في الأغاني وألف ليلة وليلة. كما وأن آداب تلك المجونية كانت محصورة في ناحيةٍ وكتاباتٍ معينة كاد كثيرٌ منها أن يكون

كقواميس خاصة لأعانة لقلة انتشار معرفة القراءة والكتابة وانحصار الأدب في طبقة محدودة من الناس . أما سمة الشهوة التي تتسم بها المثلية والتصورات ، فتجدها متفشية ، مستمرة ، عادية الأس والترتيب ، في مجرى عام من مظاهر الحياة والآثار الكتابية العربية . واذا أنت فتحت قاموساً عربياً من هذه القواميس الرائعة ، الفيروزآبادي مثلاً ، وأخذت تقرأ فيه من أي صفحة ، لم يطل بك الأمر ، على ما أظن ، حتى ترى في اللغة ، كما صارت على أيامه وكما عبرت عن عقلية وحياة بأصولها ومستجداتها ، مصداقاً لما أزعم

***

ويحلو لي ان أمثل على شيء من هذا القبيل بمخطوط طريف رأيته مرةً عند كتبي دمشقي قرب الجامع الاموي ، وكان اسمهُ على ما أذكر ، « تحفة العروس » . قال لي الكتبي أن مؤلفهُ واحد إما يُعرف « بالتجاني » ، وهو دمشقي ، او « البجاني » ، وقد يكون مغربياً ، وأن السبب في هذه الحيرة كون الاسم في مقتنيه على ما يبدو الساعة لذاكرتي ، لم يكن منقطاً . غير أنهُ يخطر في بالي الآن تحقيقٌ للويس شيخو اليسوعي ، في حواشٍ له على كتاب « طبقات الامم » للقاضي أبي القاسم صاعد الأندلسي ، حول اسم مؤلف عربي اختلف فيه أيضاً بين « تجاني » و « بجاني » . فلعلهُ كيفما صحت هويتهُ ، يكون الذي قصده وذكر كتبهُ أبو القاسم هو نفس صاحبنا مصنّف « تحفة العروس »

لم أستطع يومئذٍ اقتناء هذا المخطوط ، فاكتفيت بأن قرأت الكثير منهُ عند الكتبي . رأيتهُ على نمط « رجوع الشيخ الى صباه » ولكنهُ أرقى كثيراً . إذ هو كتاب أدب وأخبار على الطراز الجاحظي أو الجوزي . ومواضيعه ، وان كانت كونها في تجهيز لذات الجسد ، الا أنها سكت على أسلوب الفن الكتابي العربي ، فهو إذن ، كتاب جهرة وما بسطة من النثر والشعر الأدبي المعروف المتال ، وسمتهُ الخاصة أن أشدّ عنايته باللذات . قد لا يقصد إثارة الشهوة باللذات عمداً ومباشرة ، ولا هو يسرد ضروب فنون الاستمتاع الجنوني وغرائبه فحسب . بل عند مؤلفه هذه النعرة الفنية الحسناء في انهُ يستهدف دقة الوصف وحسن الحديث ، مع ثروة الاخبار والروايات الغريبة والنكات الطريفة ومع ذلك ، فادة ثروته شديدة الوطء من وجهة الاخلاق الجنسية ، كما قد تصح مثلاً ممتازاً على باب المجون في سفر الادب العربي

إنهُ لمخطوط قروسطيٌّ غريب . وهو من احسن الامثلة التي وقعت عليها وأرى تقدمها على صفة المجون في الأدب العربي اللاحق . وليتني حزته يومذاك حتى كنت أضبط الكلام عنهُ أكثر اليوم .